الشرق الأوسط
ASHARQ AL-AWSAT
جريدة العرب الدولية

# الجنادرية»: متحف التراث والثقافة»

## من حقنا عليه أن يكون أكثر إثراء لحياتنا الثقافية والاجتماعية

الأربعاء - ٢ جمادى الأولى ١٤٣٧ هـ - ١٠ فبراير ٢٠١٦ مـ

(من مهرجان الجنادرية (تصوير: خالد الخميس

سعد البازعي

الجنادرية»، أو المهرجان الوطني للتراث والثقافة، الذي يقيمه الحرس الوطني بالمملكة » العربية السعودية كل عام، حدث كبير ومهم وفريد من نوعه في المنطقة. لكنّ له جانبين أود التطرق إليهما فيما يلي:

الجانب الأول، دلالة لا يُلتفت إليها كثيرًا، إن التُفت إليها أصلاً. في احتفالات الجانب التراثي من «الجنادرية»، الجانب المتعلق بالفنون والحرف الشعبية، نلمح ما أسميه السمة المتحفية، السمة المتمثلة في أن ما يُحتفى به لم يعد، في واقع الأمر، جزءًا أصيلاً أو فاعلاً مؤثرًا في حياتنا الثقافية أو الاجتماعية أو الاقتصادية. الاحتفاء به دلالة على أهميته من دون شك، لكنه أيضًا، دلالة على تراجعه عن الحياة اليومية، لا انتهاؤه تمامًا، وإنما تحوله

إلى ما يشبه التاريخ، انزواؤه في ركن قصي من الثقافة بمعناها الشامل، ذهابه إلى المتحف، حيث يحفظ ويلمّع، ثم نزوره في المناسبات القليلة عندما نشتاق إلى ذواتنا الغاربة، أو حين نحتاج إلى التباهي به أمام الغرباء.

حين تأتي الفرق الغنائية الشعبية والراقصون، ويؤدون بعض ما تفيض به مناطقهم وتاريخها الثري بالفلكلور، وحين يتوافد أهل الحرف الشعبية من مختلف أنحاء المملكة، ليعرضوا ما لديهم أمام الناس، سواء أكان ممارسة أو منتجات، فإن ذلك كله، أو مجمله، دليل ساطع على تحول ما يُعرض أمام الناس إلى موروث، ومجرد وصفه بذلك، أي بأنه موروث، يعني أنه صار جزءًا من ماضٍ قد لا يكون توارى بالكامل، لكنه في طريقه إلى ذلك. والاحتفاء به لون من استعادته، وسعي من الثقافة للحفاظ على بعض مكوناتها، وصراعها ضد الاندثار، وتشبثها بالحياة وإن كانت مؤقتة. ولعل من أبرز الدلائل على تحول الفنون الشعبية الغنائية والراقصة إلى طبيعة متحفية، هو أنها تؤدى أمام جمهور وبطريقة ممسرحة، في حين أنها، في الأصل، ممارسة جماعية أو مفتوحة للآخرين إن أرادوا المشاركة فيها. أما المصنوعات اليدوية فدلالة متحفيتها هي أنها لم تعد ذات قيمة عملية في الغالب، ودورها الرئيسي هو تزيين الجدران والرفوف، لتكون شواهد على ماضٍ لا نكاد نحتفظ منه سوى بتلك التذكارات الجميلة.

هذا كله قد لا يسترعي انتباه كثير ممن يهمهم «الجنادرية» وقد لا يهمهم. قد يرون أن «الجنادرية»، في جانبه الثقافي الفكري، جانب الندوات والمحاضرات، أهم، وأن ذلك الجانب هو ما يجب تسليط الضوء عليه، والتساؤل عما إذا كان قد أصيب هو الآخر بنوع من الجمود أو المتحفية. ذلك هو بالفعل الجانب الثاني الذي أود الإشارة إليه.

كثير من المتابعين يرون أن الجانب الفكري من «الجنادرية» الذي عرف قبل ثلاثين عامًا، أو في السنوات الأولى، لم يعد قائمًا. إن الندوات والمحاضرات فقدت بريقها وحيويتها وتكلست. والحق، أن ندوات «الجنادرية» ومحاضراته لم تتوقف عن طرح قضايا مهمة على مدى العقود الثلاثة الماضية. وتعد مبادرة الحرس الوطني في دعوة ما سمي «لجنة مشورة» لتحديد القضايا التي تطرح للحوار، مبادرة مميزة. ولا شك أن مسؤولي الحرس أرادوا الاستفادة من الرأي العام، رأي أهل العلم والثقافة بشكل خاص، لكي ينهضوا بمستويات الحوار من ناحية، ويبعدوا اللوم عنهم من ناحية أخرى. وقد فعلوا خيرًا. لكن الملاحظ، أنه على الرغم من ذلك، ظلت المتحفية تلاحق هذا النشاط، وظل في عزلة إلى حد بعيد، وظل كثير من المعنيين بالشأن الثقافي ومنتجي الثقافة، من كتاب

وباحثين، يعزفون عن الحضور. فإذا كانت القضايا التي تطرح مهمة، فهل السبب في ذلك نوع المتحدثين أم أنه السقف الذي يشعر المتحدثون أو بعضهم بصعوبة تجاوزه؟

من المشكلات التي تعاني منها المؤسسات الثقافية، ليس في المملكة وحدها وإنما في أماكن كثيرة من العالم، خوفها من التغيير وقلقها من الجديد، سواء أكان من القضايا أو من الأشخاص المتحدثين. لذلك تميل القضايا إلى أن تكون «آمنة»، مهمة، لكنها مأمونة الجانب، كبيرة لكنها على قدر عالٍ من العمومية والضبابية (العولمة، علاقة الشرق بالغرب، أثر الإسلام.. إلخ). ومع أن مثل تلك القضايا يمكن أن تحفز على أطروحات عميقة وأصيلة، فإن ذلك يعتمد على المتحدثين: أهميتهم، الحدود التي رسموها لأنفسهم أو رُسمت لهم، رغبتهم في طرح ما هو مهم. ما يحدث أحيانًا، إن لم يكن غالبًا، هو أن الأطروحات تتسم بالمجاملة وبمراعاة الحدود، إلى حد أن المتحدث لا يقول جديدًا أو مهمًا. ما يهم البعض، ولا أقول الكل، هو أن يتلقوا الدعوة وأن يحصلوا على مكافأة مالية، وإن كانوا من خارج المملكة، أن تتاح لهم زيارة الأماكن المقدسة. يضاف إلى ذلك أن قائمة المدعوين من خارج المملكة - بل ومن داخلها - صارت متحفية هي الأخرى، فهي تضم عادة أشخاصًا بعينهم كل عام. وهؤلاء ليس لديهم، في الغالب، أكثر من الإشادة بـ«الجنادرية» وبالمنجزات. قد يراوح بين الأشخاص، لكن الغالب هو تكرارهم. وأنا أتحدث من موقع المشارك، أحيانًا، والمتابع غالبًا، لهذا الجانب من نشاط المهرجان منذ بداياته، حين كان المدعوون يشملون أسماء مثل محمد عابد الجابري، وشكري عياد، وأحمد عبد المعطي حجازي، وغيرهم من الأسماء المهمة.

أخيرًا، مما أسهم في «تكليس» النشاط الفكري في الجنادرية، وإضعاف مساهمة المهرجان في دعم الحياة الثقافية في المجتمع السعودي، طريقة التعامل مع نصف المجتمع، مع المرأة. لقد اتسم ذلك التعامل، في الغالب، بإضعاف دور المرأة وعزلها عن الرجل. وهو ما يختلف مع توجهات مؤسس المهرجان، الملك الراحل عبد الله بن عبد العزيز رحمه الله، الرجل الذي وقف مع المرأة بكل ما يستطيع، ودعّم حضورها حيثما أمكن. مثلما أنه يختلف عن التوجه الحالي، في عهد الملك سلمان حفظه الله، وهو داعم كبير آخر للمرأة. ففي العام الماضي، فرض على النساء أن يجلسن في قاعة منفصلة بعد أن كان يسمح لهن بالجلوس في القاعة الرئيسية للمحاضرات، الأمر الذي يتناقض مع الوضع القائم في أماكن أخرى، أبرزها مجلس الشورى، حيث تجلس العضوات مع الأعضاء في قاعة واحدة، ومن دون فصل. فهل سيستمر «الجنادرية» في توجهه الحالي

أم سينتفض من جديد، ليقدم قضايا ووجوهًا وأسقفًا أكثر ارتفاعًا في الحوار والمشاركة، تكرس تأثيرها المجتمعي؟ من حق المهرجان علينا أن نقدم له الرؤية الناقدة، وأن نتمنى له الاستمرار والرقي، ومن حقنا عليه أن يكون أكثر إثراء لحياتنا الثقافية والاجتماعية، لكي لا ينتهي به الأمر جزءًا من تراث متحفي.

* عضو مجلس الشورى السعودي